الحرب البونيقية الثانية

(218 – 201 ق.م.)

كانت أسباب هذه الحرب هي نفسها أسباب الحرب البونية الأولى، فضلا على أن التوسع القرطاجي في إيبيريا قد أثر على الكيان الروماني، إذ كان في طور الإمبريالية، أي الخروج من الإطار الإيطالي إلى السيادة الرومانية على المتوسط كله.

وبانتهاء أزمة سيغنطة، وإعلان الحرب من روما، بدأت الدولتين في الاستعداد الفعلي لها؛ فقد كانت خطة هنبعل التاريخية تتجه لنقل الحرب إلى عقر دار روما، والاتجاه إليها برا. وقد كان درس الأرض جيدا، وأقام علاقات مع الشعوب التي سيمر عبر أراضيها، استغواها بذهب قرطاجة كما يزعم بولبيوس. لقد كان اتجاهه لغزوها برا خيارا استراتيجيا واضطراريا؛ فهو لم يكن يملك الأسطول الكافي لحمله بحرا، مع خطورة الأسطول الروماني عليه؛ كما لم يكن بإمكانه انتظار جيوش روما لتأتيه في إفريقيا أو إيبيريا، خشية اضطراب الأهالي عليه؛ فضلا على قوة أسطول روما وقرب مستعمراتها من قرطاجة (صقلية)؛ كما أنها كانت إذا انهزمت سرعان ما تعوض ما فقدته من جنودها من خزانها البشري في إيطاليا؛ فكان من الواجب قتالها في عقر دارها لدفعها على التخلي عن مخططاتها الهجومية، ودفعها للدفاع عن أراضيها؛ ثم إن هنبعل أراد جمع الناقمين على روما من الغاليين وغيرهم، وتعظيم جيشه بهم؛ كما سيسهل عليه كل ذلك الحصول على المدد من إيبيريا برا عبر الطريق التي سيفتحها.

وتبدأ خطة هنبعل، ويدخل إيطاليا بعد اجتياز أسطوري لجبال البرنيه والألب، فاقدا في طريقه نصف جيشه وفيلته. وتبدأ الحرب وتدوم طويلا، إلى أن يتولى شبيون الإفريقي قيادة الرومان، ويبدأ خطته العكسية لمواجهة جيش هنبعل وإنهاء الحرب، وكانت تصبو للنزول في عقر دار قرطاجة وحربها هناك.

وتصبح قرطاجة –بعد نجاح خطة شبيون- في خطر حقيقي؛ فقد فقدت إيبيريا وصقلية وحليفها ببلاد البربر، ولم يكن لها بد من استدعاء هنبعل وأخوه ماغون لنجدتها. ويكر هنبعل راجعا إلى وطنه (سنة 202 ق.م.) بعد غياب ستة وثلاثين سنة، ويجمع ما قدر عليه من المرتزقة والموالين لقرطاجة، ويزحف إلى شبيون، فيلتقيان بموضع "زاما"، وهي المعركة الحاسمة لهذه الحرب، التي واجهت فيها قرطاجة القوة الرومانية مدعومة بالقوة النوميدية؛ فكانت الهزيمة النهائية لها.

- **الهزيمة وبنود الصلح**:

وتراجع هنبعل بعدها إلى قرطاجة، ونصح مجلس الشيوخ بتوقيع الصلح مع شبيون مهما كانت شروطه، ويستعجل شبيون ذلك لقرب نهاية قنصليته، أو خشية انقلاب الأحوال، ويفرض على قرطاجة شروطا قاسية، بعد أن بعثت روما عشرة من رجالها لوضع المعاهدة، والتي كانت تنص أهم بنودها على:

- أن تتخلى قرطاجة عن جميع ممتلكاتها بإيبيريا وجزر المتوسط.
- أن تسلم كل الأسرى الرومان والمتحولين إليها.
- أن تسلم أسطولها البحري باستثناء عشرة سفن.
- أن تعترف بماسينيسان ملكا على مسيسيليا بعاصمته سيرتة، وتعوضه عن الحرب، وتحترمه كحليف لروما.

- ألا تجمع مرتزقة، ولا تعلن حربا إلا بإذن روما.
- أن تساعد روما عسكريا في حروبها إذا طلبت ذلك.
- أن تتخلى عن تدريب الفيلة، وأن تسلم جميع الفيلة المدربة لديها.
- أن تسلمها مائة رهينة، يتراوح سنها بين الأربعة عشر سنة والخمسة وثلاثين سنة.
- أن تدفع ضريبة حرب مقدارها عشرة آلاف طالت على مدة خمسين سنة.

- **آثار الحرب**:

وبهذا انتهت أشهر حروب التاريخ القديم، ليس بعد أن خلفت آثارا كارثية على قرطاجة، كان من أهمها الانهيار العسكري التام والاقتصادي النسبي، حيث تضطر لتسليم فيلتها وأسطولها ومستعمراتها، ودفع ضريبة حربية ثقيلة؛ فيتقرر عليها الإفلاس. ثم فقدانها نفوذها التام في بلاد المغرب، وظهور عدو جديد لها بها، الذي سيوسع حدوده على حسابها دون رادع. ونهايتها كقوة بحرية متوسطية، غذ أصبحت مجرد مدينة تابعة لروما، كأي مدينة من المدن التجارية المتوسطية. وقد تحول موقف هنبعل إلى الدفاع عن نفسه أمام خصومه من الحزب الأرستقراطي بقرطاجة، رغم نجاحه في إعادة القوة لها نسبيا، واضطر بعد التآمر عليه من اللحوق بالملك السوري "أنتيو شوس" (Antiochus)، ثم بملك "بتينيا"، حيث يلقى نهايته التي تذكرها الرواية اللاتينية (183ق.م.)، وبذلك يقضي أحد أعظم القادة الذين أنجبتهم قرطاجة وبلاد المغرب.

وهذه الحرب وإن كانت أصعب الحروب في تاريخ روما وأطولها، إلا أن انتصارها فيها كان البداية الفعلية للإمبريالية الرومانية؛ إذ انتقلت فيها البشرية إلى نظام دستوري يقدم وحدة الفكر والمشاعر على وحدة الدم والجنس، كما يؤكده بعض المؤرخين الغربيين.

- **أسباب الإخفاق القرطاجي**:

لم تكن هزيمة قرطاجة في هذه الحرب وليدة أقدار محتومة، بل كانت نهايات مترتبة على أوليات؛ فالدولتين وإن كانتا متقاربتين في عدد رعاياها، إلا أن تجييشهما للجيوش كان مختلفا؛ فروما قائمة على كفدرالية مدن قوية الروابط "الوطنية"، في حين قرطاجة قائمة على مدن شبه مستقلة، وأحلاف واهية. وفي حين كان جيش هنبعل مؤلفا من حوالي تسعون ألف مقاتل أكثرهم من المرتزقة والبربر خاصة، كان بإمكان روما جمع مائتي ألف إلى أربعمائة ألف من المقاتلة! وقد انحصرت قوة قرطاجة في بعض الأوقات ولم تقدر على جلب المزيد من المرتزقة لمواصلة حربها، في حين كان بمقدور روما استمداد رجال جدد من بلادها في كل وقت، بل وحتى بعد النكبات.

وزاد من ضعف قرطاجة ضعف أسطولها البحري الذي كانت به تمد هنبعل وتقطع الإمدادات عن شبيون؛ فقد كان لها خمسون كنكريم في مقابل 220 لروما. وضعف تحصينات مدنها الأخرى، الذي زاد من سوئه عدم مبالاة والبغض الذي كان يحمله لها بعض رعاياها من الأهالي.

كما لم تسلم أحلافها من الضعف أيضا؛ فقد كان الحلف مع الغاليين هشا، ولم يف هؤلاء لهنبعل بالمدد المطلوب؛ واتجه هذا للتحالف مع ملك مقدونيا، الذي لم يكن صادقا في وعوده، على الرغم من اتفاقهما على عداء روما. وكذا كان الحال مع أحلافها بإيبريا سرعان ما كانت تنقلب للحلف مع روما. ولم تكن أحلافها المغربية بأحسن حال؛ فقد غدر بها ماسينيسان وحالف شبيون؛ ولم يكن سيفاقص مشاركا قويا لها في الحرب، إذ سعى بنزول شبيون للصلح بينهما، في وقت كان عليه نصرة حلفائه بجيشه دون تريث، فضلا على أنه جاء بقوة قليلة التدريب ضعيفة القيادة.

كما ضعفت قرطاجة في بعض جوانب تخطيطها الحربي؛ خاصة فيما تعلق بطرق الإمدادات لهنبعل، التي كانت مفتاح النجاح في الحرب؛ كما كان دعمها لهنبعل متدبدبا ضعيفا مترددا؛ ففي الوقت الذي كانت تترك فيه فلسفة التاجر في إدارة حربها بتفويض الأمور لهنبعل، سرعان ما ترجع إليها بعد

مطالب هذا المتكررة بالمدد. لهذا وصف نظامها العسكري الحربي في هذا الجانب بقلة الكفاءة. وعلى رغم احتواء جيشها على فرقة فرسان قوية، وفيلة مدربة، إلا أن ضعفها في قوة الرجالة كان مهما، لم يتلافاه كل الذكاء الذي تمتع به قائدها.

ويرى في النهاية "باكير" (Baker) أن السبب الرئيس لذلك النصر الروماني والهزيمة القرطاجية في الحرب البونية الثانية، هو النظام السياسي الذي قامت عليه "الديمقراطية الرومانية"؛ فقد أظهرت هذه الحرب تفوق الوحدة السياسية والاجتماعية المصنوعة في الفوروم والسيناتو، على قوة الروابط العائلية التي قام عليها النظام القرطاجي، وعلى "الحيوية العبقرية الانفرادية لهنبعل".

ومهما قيل حول هذه الحرب، ومهما استخلص منها من نتائج، ومهما أسهمت في إنتاج فرضيات تاريخية؛ فإنها ستبقى إحدى أهم وأشهر حروب التاريخ القديم، التي تقابلت فيها حضارتي الجنس السامي والجنس الهندوأوربي، والتي ستتكرر مثيلاتها عبر القرون.

اهـ.